٥ ـ ماذا حدث للعقل الإنسانى ؟

هكذا، بعد أن صادر بولكين هورن على أن العلم وحده لايكفى، اصطحبنا إلى جولة فى عالم فلسفة العلم، ثم جولة فى عالم العلم ذاته، أعقبها بلقاءات حية مع بعض من شخوصه البارزة. وسبيلنا الآن إلى عالم الفلسفة ذاته، فهذا الفصل يناقش واحدة من أمهات المشاكل الفلسفية الكبرى، ألا وهى مشكلة العقل ومكانه فى الكون والعلاقة بينه وبين المادة، أى العلاقة بين العقل والمخ أو الدماغ. وبالطبع سوف يناقشها على ضوء التطورات العلمية الراهنة.

فلاشك أن تراكم كشوف العلم بشأن بنية الكون الفيزيقى وتاريخه لهى أعظم انتصارات الإنسان. لقد أثبتت أن العقل ليس مهيئاً فقط لخوض خبرة الحياة اليومية، بل أيضاً لاقتحام سر الذرة وما دون الذرة واستكناه طبيعة الفضاء الشاسع بما يحويه من تريليونات النجوم. وتتربع نظرية الكوانتم بمعية الكوزمولوجيا أو علم الكونيات على قمة إنجازات القرن العشرين. ولكن أين يقع العقل ذاته فى هذا العالم الذى يصفه العلم؟ إنه يصف خلفية عديمة الحياة، حيث تنتقل الطاقة من جسيم إلى آخر، فلا يبدو فيها مكان لكيان عقلى. ويا له من تناقض! العلم يجعل من العقل جوّاباً فى مثل تلك الآفاق الرحيبة، بل وجوّاباً فى الشبكة العصبية للإنسان، وهى بلاشك تلقى ضوءاً مهمًّا، لكن يظل العلم لايمكننا من أن نجوب فى أقطار أصغر خبرة عقلية حية من قبيل إدراك روعة إصيص من الزهور القرنفلية.

عبور الهوة :

من أجل عبور الهوة نجد الصدارة لأبحاث علماء النفس، خصوصاً أولئك المعنيين بموضوعات من قبيل أداء وظائف الذاكرة الإنسانية وما إليها من مجالات تتوسط بين فيزيولوجيا الأعصاب وظواهر الخبرة العقلية. ويأخذ بولكين هورن فى اعتباره أيضاً بصيرة أصحاب علم نفس الأعماق الذين لايكتفون بالسلوك البادى أو العقل الواعى، ويبحثون فى الأعماق المطمورة عن عوامل فاعلة لانكون على وعى بها. صحيح أنهم ـ وعلى رأسهم فرويد ويونج وخلفاؤهما ـ نادراً مايجمعون على الخرائط التى يرسمونها للاوعى، إلا أنه هناك بالتأكيد بعداً أعمق مما يبدو للوعى. فمن الخبرات المألوفة للعلماء هذا الانشغال الواعى العميق بمشكلة ما لفترة طويلة تظل عقيمة، لكن تجرى فى أعماقها عملية لاواعية تجعل الحل يقفز بغتة إلى الذهن دون أية مقدمات. كما حدث مع هنرى بوانكاريه الذى ظل شهوراً طويلة يبحث عن حل مشكلة رياضية عميقة، حتى أدركه اليأس وانصرف عنها، وبينما يضع قدمه فى إحدى الحافلات لمع الحل فى ذهنه فجأة. وهذه خبرة كثيراً مايمر بها العلماء بأشكال مختلفة ودرجات متفاوتة.

ويعترف بولكين هورن بأن العبور النهائى للهوة بين العقل والمخ هى مهمة ميتافيزيقية. ربما تستند إلى بصيرة تجريبية علمية، بيد أن العلم غير قادر على تحديد إطار معالجة هذه المشكلة، بأكثر مما تستطيع أساسيات البناء أن تحدد الشكل النهائى للمنزل وتصميمه وطابعه.

لابد أن نسلم القياد هاهنا للعقل الفلسفى، ويعلم بولكين هورن أنه ليس خبيراً فى الفلسفة، بيد أن المسألة شديدة الخطورة كى نتفهم أنفسنا ومنزلتنا ككائنات بشرية، وتستحق المغامرة، ولايحسب أن أهل الفلسفة والميتافيزيقا سيمنعون فيزيائياً نظرياً من دخول عالمهم ومحاولة فض الاشتباك الناشب بينهم، لاسيما وأننا جميعاً نملك خبرة داخلية لايستهان بها بالحياة العقلية.

فحص الظواهر:

ربما كانت الظواهر الأساسية التى ينبغى أن يبدأ منها النقاش هى خبرات نية الفعل أو قصديته، الاعتقاد بالحق أو الباطل، والخبرة باللذة أو الألم، وإدراك الألوان والنغمات الموسيقية، وكلها تبدو بمثابة المادة الخام للحياة العقلية، المتميزة عن مقولات الأحداث الفيزيقية. الألم على وجه الخصوص خبرة عقلية مهمة يتجسد فيها الفارق بين الخبرة بالأحداث الفيزيقية والخبرة بالأحداث العقلية، كما أوضح ديفيد هدجسون D. Hodgson. ومع هذا يرفض فلاسفة العقل بحث خبرة الألم ويرون الحديث عنها حديثاً مرسلاً، يدخل فى نطاق مايُسمى بعلم النفس الشعبى Folk Psychology، الكفيل بتشويه الواقعة المبحوثة ـ العقل؛ مثلما تشوه الأحاديث الجارية الواقع الفيزيقى حين تقول: غربت الشمس. وهذا ما انقض عليه جون سيرل J. Searle مشيراً إلى أن النظريات الشعبية لو كانت غير صادقة لما أمكننا البقاء على قيد الحياة. ربما لايملك الحس الشعبى بصيرة صادقة بشأن النظام الشمسى، لكنه يملك بصيرة تنبئه بأن السقوط على منحدر صخرى ذو عواقب وبيلة، وأن الجوع يعنى تناول شئ من الطعام، وأن الألم غير سار ينبغى تجنبه... كلها خبرات عقلية لن يدحضها أى دليل تجريبى، بينما يسهل دحض كثير من أقوال فلاسفة العقل، أو يصعب قبولها، خصوصاً حين يسخرون من الحس العام وعلم النفس الشعبى ويرفضونه، وهو لايسهل رفضه.

ويتضح من هذا النقد، كيف يبدأ العلماء من القاعدة.. من الوقائع التجريبية ويبنون عليها، ولا تفكير ذا قيمة فى العقل إذا أهمل أساس حياتنا الذهنية، وهو تلك الخبرات الواقعية التجريبية التى يمر بها الجميع.

ثم يتحدث بولكين هورن عن اتجاه لاستبصار موضوع العقل عن طريق تصور تجارب شاذة وغريبة، كإثارة العقل بمخططات جنونية ماكرة أو إجراء جراحات تغير بنيته وتركيبه، أو جعل الجسم يتحلل فى مكان ما ثم إعادة بنائه فى مكان آخر!!! وهى

تذكرنا بالشيطان الماكر الذى افترض ديكارت أن يضللنا كلما فكرنا فى البديهيات. تلك التجارب الافتراضية أو التصورية قد تثير مناقشات شيقة بشأن طبيعة العقل والعلاقة بينه وبين المخ، ولكنها لاتكتسب أهميتها الحقيقية إلا إذا أجريت فعلاً، ويحسب بولكين هورن أن طبيعة الإنسان اللينة التى تتدفق فيها حياته العقلية، لن تسمح أبداً بمثل هذه التجارب مهما تطورت الوسائل الفنية.

الذاتية:

إن الأهمية المركزية فى الحياة العقلية هى للوعى ولإدراك الذات. وما يجعل مشكلة العقل مُحاقة بالصعوبات هو ارتباط الوعى بالذات الإنسانية.

استراتيجية العلم تقوم على اعتبار العالم ومايحويه «موجود هنالك» ومُتاح لمعالجات بارعة ولأن نستجوبه، ولكن بغير أن يتدخل الباحث فى مساره. هذه الموضوعية المطلقة اهتزت كثيراً مع تقدم نظرية الكوانتم، أو على الأقل تغيرت وتبدل معناها، فتدخُل أجهزة القياس هو الذى يحدد النتيجة التى سيتم رصدها وملاحظتها، وإن كانت الأجهزة لاشخصية وتهدف الوصول لنتائج مقبولة بين الذوات أجمعين، مما يعنى أن الباحث كشخص أو كذات يظل منفصلاً عن الظاهرة المبحوثة.

هذه الاستراتيجية العلمية تتحول إلى كارثة ميتافيزيقية إذا أصبحت قاعدة لكل شىء. إنها موضوعية عصر التنوير التى تلغى الذات من عملية المعرفة تماماً، ويعتبرها بولكين هورن مصيبة فلسفة العقل ومصيبة الحضارة الغربية على السواء. فحتى الرؤية الأنطولوجية لابد وأن تكون رؤية شخص ما وكل خبرة عقلية لابد وأن تكون خبرة شخص ما، وكل إحساس بالألم هو إحساس شخص ما، على الإجمال هناك خصوصية شخصية فى الحياة العقلية، لايمكن أبداً إلغاؤها. هل ماتعنيه أنت بالأزرق هو ما أعنيه أنا بالأزرق؟ إن الاحتكام إلى بقعة لونية، اتفق كلانا على أنها زرقاء لايحل المشكلة ولايلغى الخصوصية، فكيف القطع بأن إدراكى للأزرق هو إدراكك نفسه له؟!

كل شخص ينظر إلى الواقع من منظور خاص بخبرته الفردية، وإنكار هذا هو إنكار لأساس أية معرفة حقيقية. وليس الوعى البتة مجرد ظاهرة فرعية أو ثانوية من ظواهر المادة، وإنكار ذلك ـ كما أشار سيرل ـ هو سبب كل عقم وخواء وإجداب يلحق بعلم النفس أو بفلسفة العقل أو بالعلوم المعرفية.

على هذا الأساس يدافع بولكين هورن عن نوع من الذاتية فى العالم وفى أساس المعرفة. ويؤكد أن هذه الذاتية لن تسقطنا فى لجة آلاف مؤلفة من العوالم كل منها خاص بذات معينة، أو فى لجة الأنا وحدية Solipsism أى المصادرة على أن الأنا وحده هو الموجود، والعالم الفيزيقى مجرد إدراكات أو تجليات للأنا وليس له وجود خارجى

مستقل، ولا شأن للأنا بإدراكات الآخرين. ليس اتفاق العلماء على النظريات هو الشكل الوحيد للوصول إلى حقيقة العالم، هناك أشكال أخرى تنبثق عنها الآداب وإبداعات الفنون. وكل نظرية عن الوعى لابد وأن تأخذ فى اعتبارها أن الإدراكات الفردية قادرة، على الأقل لدرجة ما من إصلاح ذات البين لنتفق جميعاً على أن عقولنا موجودة فعلاً، وأننا نعيش فى عالم مشترك بيننا جميعاً.

أما نظرية التطور Evolution فهى تقع فى مأزق بشأن علاقتها بالوعى. أجل بقاء الكائن الحى يتطلب تفاعلاً مؤثراً مع البيئة، ولكنه لايتطلب الوعى بالذات، بل إن الاستغراق فى الوعى بالذات قد يصرف الإنسان عن الانتباه للخطر، مما يجعله ذا نتائج سلبية بالنسبة للبقاء. إن بولكين هورن يلف ويدور ليخلص إلى أن التطور بمفرده غير قادر على تفسير ظاهرة الوعى والإحاطة بها.

الثنائية والواحدية:

ويبقى السؤال المهم بشأن طبيعة الوعى. فنحن نحيا فى كون يُقَّدر عمره بنحو خمسة عشر بليوناً من السنين حيث خضعت ظواهر الحياة للتطور، وكان ظهور الوعى أخطر تطور حدث على طول تاريخ الكون، ويبدو ملائماً أن نفهمه كبزوغ وانبثاقة لإمكانية كانت كامنة منذ البداية، وليس كعنصر خارجى أُقحم فجاة ولو حتى عن طريق الخالق القدير المحسن الرحيم. فليس العقل عنصراً مختلفاً ومتميزاً تماماً عن المادة، كما تتصور الثنائية الديكارتية التى يدحضها تماماً تأثير العقاقير وإصابات المخ وأمراضه، فضلاً عن الصعوبة الأزلية التى تجدها هذه الثنائية فى تفسير العلاقة بين العقل والمادة، وكيف يستطيع قرار عقلى أن يحرك اليد. وهذه المشكلة أصبحت الآن أكثر إلحاحاً، لأن العلماء مطالبون بحلها حلاً جذرياً على أسس تكاملية.

لقد بحث الفلاسفة عن الحل فى الواحدية المحايدة أو المزدوجة الوجه. فالعالم من خامة واحدة، لكنها ليست عقلاً قحاً ولا هى مادة خالصة. هل تستطيع الواحدية المحايدة حل المشكلة حقاً دون قدر ما من رد العقل إلى المادة؟ يبدو أن هذه المشكلة تنتظر قروناً من العمل الشاق لكى نصل إلى حل لها.

تحتفظ الثنائية بقدر من الجاذبية لأنها قادرة على تصوير الروح كجوهر مفارق، ولكنه متصل بالبدن، مما يفسر خبرة تعتلج فى نفس كل شخص. فهل هذا الصبى ذو الشعر الفاحم السواد والذى آراه فى الصورة الآن هو أنا الذى تجاوزت أواسط العمر بشعر وخطه المشيب؟ أجل! هذا الطفل المتفوق فى الحساب ويجد صعوبة فى تعلم القراءة هو أنا العالم الذى تكرس للكتابة عن العلم؛ هناك خطان متوازيان يبدوان، خطًا داخليًا لتطور العقل وخطًا خارجيًا لتطور الجسد.

متسع للروح :

لايعتقد بولكين هورن أنه يجب علينا هجران أى حديث عن الروح، بل بالأحرى ينبغى أن نحاول إعادة تعريفها بصورة تتفق مع الواقع كما نعرفه. روحى هى أنا الحقيقية الواقعية، وهى ليست كياناً روحانياً خالصاً يسكن مؤقتاً فى كتلة فيزيقية هى جسدى، ولاهى محض مادة تعطى الجسد شكله النهائى. فضلاً عن أن الجسد يتغير دائماً بتأثير الطعام والشراب والملبس وما إليه. وقليل من ذرات الجسد اليوم، كانت هى نفسها ذراته منذ وقت طويل مضى، وإذا كان هناك أساس جسمانى لاستمرارية النفس، فهو فى انتظام هذه الذرات فى شكل Pattern ما حامل للمعلومات. و«شكل» هنا يستخدم بمعنى واسع فضفاض مادمنا لانزال بصدد إعادة تعريف الروح. المهم أن هذا الشكل يتحول بصورة مستمرة، مثلاً حينما نكتسب ذكريات جديدة. وصميم هذه الاستمرارية للتغير هى أساس استمرارية النفس.

يعتقد بولكين هورن أن هذه النظرة للروح التى يحاول التعبير عنها، لن تفجئ القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ - ١٢٧٤) الذى أخذ من أرسطو أن الروح هى صورة (شكل) الجسد.

الهوية الشخصية :

نحن نفهم أنفسنا كشخوص مستمرة ذات ديمومة، فلا يستطيع بولكين هورن أن يأخذ برأى الفيلسوف دانيال دنيت D. Dennett الذى يعتبر النفس مجرد صورة تخيلية ومفيدة ننسجها من شبكة من الأحداث العقلية، وليست البتة وجوداً متعيناً أو معرفاً.

وثمة فيلسوف آخر له مناقشات خصيبة لهذه المشكلات، هو درك بارفت D. Parfit يرى أن الهوية الشخصية ليست هى مايعنينا، المهم هو تلك الاستمرارية السيكولوجية التى تناظر انطباعاتنا عن الذاكرة بالماضى. لقد اعتبر بارفت النفس كياناً مراوغاً، لأنه سقط فى مستنقع الاحتمالات التى تطرحها فروض من قبيل انقسام المخ أو استزراعه فى شخص آخر أو استنساخه. ويتساءل بولكين هورن باستبلاه: لو دخلت فى آلة لاستنساخ المخ وأصبحت شخصين أحدهما يرتقى فى مدارج السلطان والثروة والمجد والآخر يعيش مقهوراً وقد يتم ذبحه، فأيهما هو أنا؟ أهذا الظافر أم ذاك المذبوح؟!

حسناً، إن الفلسفة عالم عجيب حقاً، بيد أن المقدمات المعينة تؤدى إلى نتائج معينة. ولعل تصور أمثال تلك التجارب المرعبة هو حيلة ميتافيزيقية أكثر من أن تكون مرشداً يعتمد عليه للوصول إلى الحقيقة. ويمكن أن نستفيد حقاً من افتراض درك بارفت للعلاقة «ع» وهى الاستمرارية السيكولوجية والترابط السيكولوجى مع العلة

الصحيحة لهذا. ولكن ما تلك العلة الصحيحة أو المناسبة لإحداث هذا؟ يصعب تصورها كقوة إنسانية عادية، ويبدو أن ثمة قوة إلهية علوية مقدسة هى التى تنتج الاستمرارية والترابط السيكولوجيين. ولايصعب بعد ذلك أن يتسق معها الوعد الدينى بالحياة بعد الموت. ويمكن افتراض أن ذلك الشكل المعقد حامل المعلومات الذى طرحناه تخطيطاً للروح، يظل خلال كل تغيراته وتحولاته محتفظاً بخصائص باقية، أو بالمصطلح الرياضى بثوابت، هى التى تجعل الأنا أنا فريدة متميزة وليست أى شخص آخر.

المذهب الردّى :

وعلى هذا يغدو من الطبيعى جداً أن يرفض بولكين هورن بشراسة كل صور الفلسفة الواحدية المادية التى تزعم أن الوجود بأسره صيغ من مادة خالصة، وكل مايبدو من وظائف الروح والوعى والإدارة والنفس مجرد ظواهر فرعية للمادة أو وظائف ثانوية لها. وأكثر صور الواحدية المادية تبلداً هو ذلك المذهب الردى الذى يتبناه غلاة الفيزيائيين والوضعيين المتعصبين، ويرى إمكانية رد كل العلوم فى النهاية إلى حدود الفيزياء مادامت كل الظواهر ترتد إلى ظواهر المادة. ومادام العلم الفيزيائى قد حقق نجاحاً باهراً وفسّر كثيراً، فلابد وأنه سوف يفسر كل شىء.

ويرد عليهم بولكين هورن بمقولتين، الأولى لعالم الفيزياء النظرية ذى التعبيرات الحادة فولفجانج باولى: «لانستطيع أن نضمن أى شىء فى المستقبل»، وقد قالها لتوبيخ أولئك الذين يهللون كثيراً للعلم، ويؤكدون أنه فى النهاية سيكشف عن كل شىء، والملاحظة الثانية أن إنجازات علم الفيزياء ذاتها تمت بفضل عقول عظيمة وشخصيات موهوبة وليست بفضل المادة الفيزيقية فى حد ذاتها. لم يكن من الممكن تفهم الموصلات الفائقة التى تقوم بدور جوهرى فى العتاد الصلب للحاسب الآلى - دون كشوف ثورية لنظرية الكوانتم التى أحدثت تغيرات جوهرية فى التصور النيوتونى للمادة. ومن المؤكد أن الوعى ظاهرة أعمق من الموصلات الفائقة، وتفهمها يستدعى ثورة أكثر جذرية فى تفكيرنا المعاصر، الذى لايزال يجهل الكثير عن طبيعة العقل وعلاقته بالمادة. وأية مماثلة بين ظواهر العقل وظواهر المادة تقع فى أخطاء قاتلة لايمكن التغاضى عنها، فثمة لا مقايسة جذرية بينهما، أى استحالة الحكم عليهما بالمقاييس نفسها أو إخضاعهما للمعايير نفسها.

لقد بدا الحاسب الآلى بجانبيه المرن والصلب، أى برمجياته وعتاده وكأنه يفتح الباب من جديد للمماثلة مع الإنسان بعقله وجسده. ومنذ فترة بعيدة قال ج. هلدن J. B. S. Haldane - دحضاً للمادية إنها إذا كانت صادقة فلن نستطيع أن نعرف ذلك، فإذا كانت آرائى نتيجة لعمليات كيميائية فى الدماغ أو المخ، فإن الكيمياء هى التى

تحكمها، وليس المنطق، والصدق حكم منطقى وليس حكماً كيميائياً. ثم تراجع هلدن عن هذه الحجة تحت تأثير العمليات المنطقية التى يجريها الشق المادى أو عتاد الكومبيوتر. ويوضح بولكين هورن أن هذا التراجع خاطئ لأن المماثلة خاطئة لأسباب عديدة. بداية نلاحظ أن برنامج الحاسب الآلى الناجح يتطلب مبرمجاً ماهراً، كيف يمكن أن نجد هذا الكائن - أى المبرمج - فى عالم الفلسفة المادية الخالصة الذى لايتسع لأشخاص؟!

البعض يرى أن التطور الحيوى يقوم بدور المبرمج الأعظم. ولاشك أن استراتيجيات الصراع من أجل البقاء تعطى أسساً وراثية، بيد أن هذا لايغطى إلا نذراً يسيراً مما نحاول تفهمه. والتطور - كما أشرنا سابقاً - لايكفى البتة لتفسير الظواهر العقلية.

هكذا نلاحظ أن كل خطوط الكتاب تسير نحو المصادرة على شىء من الوجود الفعلى الحقيقى المتميز للظواهر العقلية. وفى هذا تبدو المماثلة مع الحاسب الآلى مسألة لايمكن الاستهانة بها.

المماثلة مع الحاسب الآلى:

أصحاب النظرة الوظيفية يرون أن نظرية العقل ينبغى أن تكون نظرية عن تشغيل المعلومات، فلنطرح جانباً كل متاهات الوعى والاستبطان ونأخذ فى اعتبارنا فقط السؤال حول ترابط المدخلات والمخرجات خلال «الصندوق الأسود» أو العقل/ المخ الذى هو المشغل. فكل مايعنيهم هو الوظائف التى يقوم بها العقل، وهذه المماثلة مع الحاسب الآلى تأتيهم بالمراد.

مرة أخرى نلاحظ أنهم أهملوا ماهية العقل فى محاولة الظفر بحل سريع لمشكلة العلاقة بينه وبين المادة. كثيرون عملوا على تبيان خطأ تلك المماثلة الوظيفية من زوايا عديدة. منها مثلاً الزاوية الرياضية ذاتها وإثبات كورت جودل K. Gödel للاكتمال فى كافة الأنساق الرياضية، مما يعنى أننا ندرك صدق قضايا رياضية معينة، دون أن نستطيع إثباتها أو دحضها فى حدود منطق النسق المغلق. ثمة القوى الحدسية للإنسان التى لايمكن ردها إلى لوغاريتمات، وكما قال ميشيل بولانى: «إننا نعرف أكثر كثيراً مما يمكن أن نقوله» هناك خلفية معرفية عريضة مطمورة وكائنة لايبدو منها إلا النذر اليسير الذى تقوله، وهذه خاصية لايمكن أن يكتسبها الحاسب الآلى.

أما أقوى الحجج فعلاً، ففى هذا التمييز الحاسم بين التركيب اللغوى وبين السيمانطيقا؛ أى علم دلالات الألفاظ والرموز اللغوية، وبين العمليات المنطقية والمعنى. ومهما تزايدت براعة الحاسب فى التركيب وفى العمليات المنطقية، يظل الإنسان متميزاً بخوض مجالات المعنى والسيمانطيقا. ومرة أخرى، نلاحظ الغرابة فى

أن نتصور أنفسنا وعقولنا كبرامج فائقة وليس كمبرمجين.

وبعد، يوضح بولكين هورن أنه لايخلو من تعاطف ما مع محاولات استخدام المماثلة مع الحاسب الآلى لنصل إلى بعض أنماط التفهم البالغة التواضع والمبدئية بشأن مشكلة العقل، مايعترض عليه بشدة هو تصور أن هذه المماثلة تأتينا بالحل الشامل الكامل للمشكلة، أو تصور أن إضافة فكرة أو مقولة أو بعد للمماثلة بالحاسب كفيل بمثل هذا الحل. إن الخطأ فى هذا الموقف هو عينه الخطأ فى موقف من يأتى عام ١٩٠٠ ويزعم إمكانية التغلب على مشكلات الفيزياء الذرية عن طريق إضافة فكرة بلانك عن كمات الطاقة إلى الميكانيكا النيوتونية!! فقد كان كشف بلانك المعجز تفسيراً صائباً لطبيعة العالم الذرى بقدر ماكان يستدعى ثورة جذرية وانقلاباً فى أفكارنا عن طبيعة العالم الفيزيقى. ويبدو غريباً بالقطع ألا ندرك أن التفسير الشامل للوعى يستدعى انقلاباً أشد ثورية فى تفهمنا للواقع.

إن خطأ مماثلة العقل بالحاسب الآلى هو عينه الخطأ فى تصور أن علم الأعصاب كفيل بأن يأتينا بالمراد وأن السعادة والعذاب، الذاكرة والطموح، الإحساس بالهوية الشخصية والإرادة الحرة... وما إليه كل هذه لايعدو أن يكون سلوك مجموعات كبرى من الخلايا العصبية وجموع الجزيئات المترابطة فيها. حتى الآن مازالت هناك فجوة بين علوم الأعصاب وبين التفسير الشامل الكامل لعملية الإدراك. وحتى إذا عبرنا هذه الفجوة يظل الوعى ظاهرة فريدة متميزة، لايكفى للإحاطة بها وفك أسرارها مايكفى أية ظاهرة أخرى.

ما كدّ من أجله القبل سقراطيون:

لاحظ ناجل E. Nagel ببراعة أن الواحدية المحايدة أو المزدوجة الوجه هى عينه ما ناضل من أجله الفلاسفة السابقون على سقراط. لاشك أن رجالاً أمثال طاليس وانكسمينس يفصلهم عن حل مشكلة بنية المادة ألفان وخمسمائة من السنين، لكن اللافت هو إدراكهم أن كل مايبدو من تنوع واختلاف فى العالم هو مجرد حالات شتى لمادة واحدة أو عدد قليل من المواد الأولية، فقد كان سؤالهم المحورى: ما المادة الخام التى صُنع منها الوجود بكل مكوناته؟ قال طاليس الماء، وقال انكسمينس الهواء وقال انبادوقليس العناصر الأربعة حتى انتهى ديمقريطس إلى الذرات.. وهاهنا باكورة تصور الواحدية المحايدة.

يكمن المعضل فيما يبدو، من ناحية، من انفصال بين العقلى والمادى، ومايبدو من الناحية الأخرى من ترابط وثيق بينهما فى خبرتنا السيكوسوماتيكية ـ أى خبرتنا الداخلية بتفاعل العقل والجسم معاً. وتقذف لنا الفيزياء بطوق نجاة ينقذنا من هذا

البلبال، ألا وهو تفسيرها المزدوج الموجى / الجسيمى للضوء.

فهل يتكون الضوء من موجات أم من جسيمات؟ لم تتسق النظرية الجسيمية مع عالم نيوتن، وسادت النظرية الموجية ردحاً طويلاً من الزمن. وبعد صراع وجهاد ضارٍ، وصلت الفيزياء بفضل الكوانتم إلى التفسير المزدوج لطبيعة الضوء تبعاً لزاوية البحث، ففى بعض الظواهر يسلك الضوء سلوك الجسيمات، وفى بعضها الآخر يسلك سلوك الموجات. وتقدم مبدأ التتام Complementarity ليؤلف بين التفسيرين الموجى والجسيمى فى نظرية واحدة عمت وسادت.

وعلى خطوط موازية، رفض بولكين هورن بضراوة الواحدية المادية أو رد العقل إلى المادة، وأكد على تميز الوعى، ولم يمانع تماماً فى ثنائية ما، وكانت المحصلة أن ارتكن إلى الواحدية المحايدة المزدوجة الوجه. خامة واحدة، المادة والعقل وجهان مختلفان لها، وبينهما تتام يجعلهما متكاملين فى تفسير الظاهرة الإنسانية.

والمثير حقاً أن يناقش بولكين هورن فى تفاصيل مسهبة، نظرية الكوانتم كأساس من أسس هذا التتام، كما كانت أساساً للتتام بين التفسيرين الموجى والجسيمى للمادة. ويؤكد دائماً أن أى تفسير فيزيائى مهما كان لن يكون بمفرده كاملاً شاملاً لفلسفة العقل.

إنه يستفيد أيضاً من نظرية الكايوس Chaos أو الفوضى فى الطبيعة، المتنامية حديثاً. إن أنساق الكايوس الفوضوية منتظمة وعديمة الانتظام فى آن واحد، بتتامٍ من نوع ما. و«غريزتى كعالم فيزياء تنبئنى بألا اعتبر الكايوس مجرد مواطن جهل مؤقت». إن العلماء واقعيون حتى النخاع، ويعتقدون أن مانعرفه مرشد يعتمد عليه بشأن حقيقة الواقع. وهذا يجعلنا نجرؤ على طرح افتراض ميتافيزيقى مؤداه أن العالم الفيزيقى يملك مندوحة أنطولوجية أمام مساراته. ولاشك أن حتمية التحديد الفردى النيوتونى مسألة تقريبية تماماً، لاتصدق إلا فى حالة غير مألوفة لأحد مكونات الطبيعة، وقد انفرد تماماً بذاته واستقل عن المكونات الأخرى للطبيعة. وتعلمنا نظرية الفوضى فى الطبيعة أن التعقيد ومايبدو من سلوك عشوائى يمكنه أن ينشأ عن بساطة حتمية كامنة فى الأعماق. وهذه حقيقة رياضية تستحق أن نعرفها. وتلك المندوحة الأنطولوجية بإزاء مسارات الكون تتكامل وتتام مع علّية عاملة فيه. ومبدأ التتام يجعلنا لانرفض ماتنبئنا به الفيزياء، لكنه أيضاً يجعلنا لانكتفى بها، الإلكترونيات والكواركات والجلونات ليست كل شىء، إلا إذا حطمنا العقل والوعى والذات. كل تفسير للواقع دون تفسير ملائم للعقل هو عاجز وقاصر ومدمر. وحدود معرفتنا الراهنة ليست مبرراً لكى نتجاهل المشكلة. ينبغى أن نكون واقعيين بما يكفى، متواضعين بما يكفى لكى ندرك

أن الحل النهائى للمشكلة مازال بعيداً جداً عما وصلت إليه معارفنا. ويعتقد بولكين هورن ـ مع ناجل ـ بأنه حين يأتى هذا الحل الشامل، فسوف يغير فهمنا للكون تغييراً أكثر جذرية من كل ماعرفناه حتى الآن.

obeikandl.com